# السفينة
# جبرا إبراهيم جبرا

ثلاثة مقاطع من رواية قيد الكتابة

البحر جسر الخلاص . البحر الطريّ ، الناعم ، الاشيب ، العطوف .

وقد عاد البحر اليوم الى العنفوان . لطم موجه ايقاع عنيف للعصارة التي تقذف في وجه السماء بالزهر والشفاه العريضة والاذرع الممتدة كالشراك . البحر خلاص جديد . الى الغرب ! الى جزر العقيق ! الى الشاطىء الذي انبثقت عليه ربة الحب من زبد البحر ونفث النسيم . وما كنت لاعرف ان ( اكاد لا استطيع ان اقولها ! ) ان لمى، لمى نفسها، لمى المسكينة ، لمى الباكية بعض الليالي ، الغادرة باهلها من اجلي ، الضاحكة ، الراكضة على عيني ، لمى ستكون ايضا هنا . في هذه السفينة ، حمولتها عشرة آلاف طن ، يونانية ، تحوك شبكتها ثم تنقضها بين بيروت والاسكندرية وليماسول وبيريوس وجنوى ومرسيليا. لعبة خطرة ! فانا هنا للهرب . انا هنا لانني لم استطع ان اجعل من لمى بحري وزورقي ومغامرتي . لمى لم تكن لي . الا ساعات قلائل . ساعات اعرفها كلها دقيقة دقيقة ، قبلة قبلة . ولما فككت ازرار قميصها ، زرا زرا ، في عتمة ذلك البيت الذي اعارني اياه صديقي ليوم واحد – اعرف تفاصيل ذلك كاغنية من اغاني الراديو . طعم شفتيها ما زال على شفتي ، اتحسسه احيانا بلساني ، اخشى تلاشيه مع الايام : كان الذي بيني وبين لمى حبا لا تعيّنه الالفاظ ، ولا اللمسات ، ولا العقل . ضربا من الكينونة واللاكينونة . اشبه بان تقول لي عينان في رأسي، ولي انف ولي فم – ولكنني لا ارى، ولا اشم ، ولا اتكلم . ولمى ، ها هي لمى ، مع البحر ، مع بيروت ، مع حزيران ، مع ركاب الدرجة الثانية ، مع زوجها . واذا كانت مع زوجها ، فما نفع البحر وبيروت وحزيران وكل هؤلاء الركاب المرحين الصاخبين ؟

كانت هناك فتاة ايطالية عائدة من لبنان . إمرأة في حدود الثلاثين ( زعمت انها في الرابعة والعشرين ) ، ادعت انها هاربة من زوجها . لقد اوصلها بنفسه الى الباخرة ، ولما زمرت الباخرة ، وجعلت تنزلق ، وتستدير ، وتتناءى عن الرصيف ، صممت على انها هاربة . زواج دام سنة ولم يترك لها ذكرى واحدة تناغيها ، قالت اميليا ، سوى ذكرى منظر الجبل الاخضر الازرق المتلألىء فوق بيروت . « أتفهم ؟ الذكرى ذكرى منظر ، لا ذكرى عاطفة . ذكرى بلد ، لا ذكرى انسان . تعلمت الانكليزية في بولونيا .وقضيت

مدة في لندن. ذكرى بلد، لا ذكرى انسان. تركت زوجي وهو يظن انني ساعود. لن اعود. شكراً ». تناولت السيكارة مني ، فاشعلتها وياقتها ديكولتيه ، فانزلقت عيني دون ارادة مني الى ما بين نهديها المحصورين في السوتيان المشدود . ثم اشعلت سيكارتي ، واميليا فرنيزي تتكلم ، نصف مغضبة ، نصف فرحة بتفريغ ما في قلبها . كنا متكئين على درابزين الباخرة ، ساعة العصر ، وقد دنت الباخرة من الجزر اليونانية المنبثة في كل اتجاه . واكثر الركاب في قيلولة ما بعد الظهر . وعما قليل سيخرجون من قمراتهم الضيقة خروج الحمامات من اوكارها ، او خروج الفئران من اجحارها . بعض الوجوه تذكرك بالطيور ( وبعض الايدي الشمعية المستدقة الانامل ، الصدفية الاظافر ، تذكرك بعصافير الكناري) ، بعضها يذكرك بالقوارض ، بالخلد ، بالنسناس ، وبعضها بالخضار . هناك وجوه كالقرنبيط ، ووجوه كالباذنجان . واحيانا تبدو الوجوه ، بخدعة بصرية ، كوجوه الملائكة ! اما وجه اميليا فكان وجها من وجوه الجحيم ، يذكرني دائما بالشر . في العينين الزرقاوين لمعة حادة تؤكد ما في الشفتين الكبيرتين من غدر صريح . انه وجه اقرب الى استدارة وجه الطفل ، مما يؤكد انه غير وجهها الحقيقي . لان في العينين والشفتين ، رغم ابتسامها المستمر ، صلابة وعنفا . فهي كأنها تقول : ان تأتمني ، فعلى مسؤوليتك !

ولكنني استبق الحوادث . اغلب الظن ان هناك علاقة ما بين وجه اميليا فرنيزي وبين وجه لمى حين رأيتها مع زوجها الدكتور فالح حسيب بين الركاب ، والباخرة بعد راسية في مرفأ بيروت. وقعت عليها عيني بفجاءة الناظر الى حجر ضخم يهوي عليه من احد السطوح ، فانسحبت في الحال من مرمى الخطر . لقد غدرت بي . لقد لحقت بي الى المكان الوحيد الذي كنت اظنه في مأمن منها . خرجت ما بين جموع المتكئين على الدرابزين ، الملوحين ، الصائحين ، الحالمين ، وذهبت الى الناحية الاخرى من السفينة ، وانا اقول : أصدفة هذه ؟ أتصميم ؟ أملاحقة ؟ أاغاظة ؟ أما كفانا ما فعلناه وقلناه قبل ان تتزوج ؟ صدفة ولا ريب . صدفة لعينة . يجب ان اتجاهل الامر . ما عدت اتحمل النساء . اريد الخلوة . اريد الا يعرفني احد باسمي ، او وجهي . واحدا من مليون . عابر سبيل يصطدم به المارة ولا يرونه . ولكن لمى كانت قد رأتني في تلك الهنيهة الخاطفة . ابتسامتها رقصت على وجهها كله : ووجهها رغم سمرته فضّاح يصرح بما يستتر وراءه . عيناها لا تعرفان كتمان السر . رموشها السوداء تكحل الحدقتين واذا هما كعيون المنحوتات السومرية القديمة تفيضان عطفا ، وشوقا ، ومباشرة . لا ، لم يكن وجهها بالوجه المخاتل . وليته كان . ان كان لا بد من مغامرة مع امرأة ، فليكن وجهها وجه اميليا . انه وجه دنيوي ، ارضي ، فيه المكر الثعلبي الذي لا بد منه لامرأة مغامرة . اما وجه لمى الصريح ، المباشر ، الناطق بكل ما لديه في نظرة واحدة ، فهو وجه المأساة . انه الوجه الذي يلاحقك الى

الابد ملاحقة الشهوة والحزن .

وقد لاحقني هذا الوجه . انساه اياما ، اشهرا ، فيبـــاغتني ويغرقني في غمرة من الحس العنيف بعد الخدر والتفاهة . ثم يتركني في اصيل من النور . انهـا عودة حب كان كالرؤيا للنبي ، عالما من الوهج واللون واللذة تجعل من الجسد حببا يدوّم في كأس من الخمر . غير انني ، ذلك اليوم ، عندما رأيتها وانا اقل ما اكون تهيؤا لرؤيتها ، تمنيت لو لم تكن هناك ، لو انني استطيع اعادة سلّم الباخرة الى المكان الذي يصله بالرصيف ، واهرب . لقد هربت ، وها هي كالجدار ، كالبحر ، كالمارد ، امامي .

في الحياة غصّات كثيرة . فيها الموت . وفيها المرض . فيها الخيبـــة بالابناء . وفيها الخيبة بالآباء . فيها الشمس التي تحرق القفا ، والبرد الذي يشل الاصـــابع . فيها المرت والقتل وخيانة الصديق . ولكننا نتحملها . ان شرا وان خيرا نتحملها . ما دمنا لا نستطيع الانتحار ، فلا بد من تحملها ، ولا بد من الادعاء بالجلد والبطولة في تحملها . ولكن الغصة الكبرى هي هذا الذي يعجز عنه التحديد . هي ان تقع في هوًى صـــاحبتُه بين يديك ، ولا تنالها . تنال الف امرأة ، وتبقى تلك الغصة في حلقك . وتلاحقك الحسرة ، تباغتك مع الوجه الشهي المقتحم عليك الخدر وتفـاهة العيش ، وترى الرؤيا من جديد ، وتستجدّ الحسرة الاليمة . الموت غصة ، وهذه غصة اخرى .

في مساء ذلك اليوم ، بعد ان اقلعت السفينة ، وتأملنا مبـاني بيروت يحتضنها جبل لبنان وهي تتناءى ، وتعبنا من الاتكاء على الدرابزين ، واستسلمنـا للبحر اخيراً حين اختفى في الافق آخر اثر لليابسة — في مساء ذلك اليوم ، حين راح الركاب يتعرفون على قمراتهم الضيقة ، ويتعرفون بشركائهم فيها ، ويبدلون ثيابهم ، ويتهيأون للعشاء ، وجدت ان القمرة التي تجـاور قمرتي ينزل فيها — الدكتور فـالح حسيب وعقيلته . لقد رأيتها يدخلان ، وانا اخرج . بل انهما وقفا بالباب :

« عصام ؟ اي والله عصام ! »

هتف الدكتور فالح . واكمل :

« لمى ، شوفي ! عصام السلمان ! »

لمى ( بلهجة مسرحية ) : « من ؟ عصام ؟ »

انا ( بلهجة مسرحية ايضا ) : « شلون صدفة ! مرحبا دكتور . مرحبا لمى » .

( شلون حظ ! ) مصافحات سريعة .

الدكتور : « ها ، ان شاء الله الى ايطاليا ؟ »

انا : « لا والله ابعد . الى لندن » .

لمى : « شلون صدفة ! ستجدنا في لندن ايضا » .

وضحكا وضحكت . ومشيت . وسببت . ولعنت . لن يكون بيني وبين لمى الا جدار ! ولكنه من حديد. ويدعم الحديد زوج . ويدعم الزوج كل شيء . ولا يدعمني الا نظرة اخرى دفقت من عيني لمى بالتوق ، والحزن ، والخيبة .

سعيت جهدي ان اتجنبها ذلك المساء وافلحت . في قاعة الطعام رأيتها ، فاقتعدت كرسيا اتاح لي ان ادير ظهري لهما . ونزلت الى قمرتي مبكرا بعد العشاء . وكان شريكي فيها تاجرا من دمشق ، ساحر اللهجة . لم يكن كثير الكلام ، ولكنه اذا تكلم احسست بانك تجاه مواضيع الحياة غرّ فجّ اذا قست نفسك به. انه يعرف لا ثمن كل شيء فحسب ، بل كيف واين ومتى يجب ان يستعمل. تكلم عن الصابون ، وعن العطور ، وعن النايلون. اما انا فلم استطع الا الكلام المبهم عن اعجابي بجنائن دمّر ، والجامع الاموي ، و البوظة في سوق الحميدية . وضحك التاجر ، لانه هجر اكل البوظة في سوق الحميدية منذ ان كان طالبا في التجهيز . وتعارفنا : عصام السلمان ، شوكت ابو سمرة . وما كاد شوكت ابو سمرة يندس في فراشه المخشخش الشراشف حتى نام .

وانا ايضا نمت في الحال . ولكنني افقت وكأنني لم انم ، وليس في عيني اثر للنوم . افقت على صوت الموج يصفق جنب الباخرة صفقا نظيما مداعبا . ووشْش . . . ووش شْش ... ثم سمعت حركة ، بل احسست بها بذراعي — حركة مبهمة كأن صوتها آت عن طريق الكوة المستديرة مع صفق الموج. ولكنني لم اخدع نفسي طويلا. فالحركة هي وراء الجدار الذي هو لصق ذراعي ... الحركة من لمى وزوجها . ما اوهى هذا الجدار ، وكنت حسبته من حديد ! يا الله ... انهما يتغازلان . لمى تهدر جمالها ، تسفح انوثتها ، تعطي من شفتيها ونهديها في الطرف الآخر من الجدار . . . وقفزت كالملدوغ من فراشي . كيف اقضي الليل على مسمع من كل هذا — من لمى ، لمى . . . ولبست ثيابي بسرعة وخرجت الى ظهر الباخرة ، ريثما تنتهي نزوة المحبين وراء الجدار ، ريثما اسحق صورة هذه المرأة وراء عيني .

بعض التجارب يحملها المرء طيّ اهابه كالمرض . كقرحة لا تميت ولا تندمل . ويجابه المرء الايام والتجارب الجديدة ، والقرحة في احشائه تستكين وتهيج . واذا هاجت فلا بد من الدواء المخدر ، الذي لا يقضي الا على الالم المؤقت ، ولكنه لا يقضي على امكانية الالم وتهديده المستمر . ويصبح الالم جزءا من الكيان ، يعايش القلب والذهن ، ويبدو احيانا ، على نحو يناقض المنطق والعقل ، كأنه فرح مقيم ! كلنا عرضة لهذه الماسوكية العاطفية . ما دمنا نحمل التجربة كالمرض طيّ الاهاب ، فلم لا نتحايل عليها ونجعلها مصدرا لاحلام اليقظة ، مصدراً للقصائد غير المنظومة التي تهدر في النفس على غير انتظار ؟

كان ظهر السفينة مهجورا الا من ثلاثة او اربعة كل على انفراد ، كل يحمل ، ولاريب ،

مرضه على نحوه الخاص . لقد خرجت وانا العن ، خرجت والحقد يملأ البحر امام عيني — البحر المظلم الرقيق ، الذي يصفق موجه الباخرة وشوشةً ومعابثة .

كان القمر قد غاب ، فاسودّ امتداد اليمّ حولنا تحت بريق النجوم الكبار المتراصة ، وايقاع الآلات في جوف الباخرة في ضرب وتير مسموع . وفي وسط الحقد العارم امامي انقذفت لمى ، لابسة عارية ، لست ادري . فهي في ثيابها ولكنني ارى كل جارحة في جسمها. فالشفتان الريانتان المعطرتان بالروج ، والثديان المنطلقان من القميص — انها هنا ، امام عيني ، وراء عيني ، على بعد مني ، بين يديّ . ونحن في سيارتي ، منطلقان مع الليل الى خارج بغداد ، ويدها كالجنزير تغلّني ، تلتف حول عنقي ، تهبط الى فمي ، تتغلغل في قميصي . انعطفت بالسيارة عن الطريق العام الى حقل مهجور ، وسلطت ضؤها لاستوثق من القاع البوار التي عزمنا على اللجوء اليها . وجعلت السيارة تصعد وتهبط على التضاريس الترابية المضطربة ، ولمى تقول : « احذر السواقي . هذه الاراضي تشقها السواقي ، خذ الحذر » . ولما توغلنا ما حسبنا فيه الكفاية ، اوقفت السيارة . ورحت اقبل لمى ، اقطع شفتيها ، ازرع فمي في عنقها ، في صدرها ، وهي تقول : « انا مجنونة . مجنونة . كيف رضيت بالمجيء هنا . احبك . اعبدك . ولكني مجنونة . هذه اول مرة وآخر مرة » . وفجأة شق الليل نباح عنيف . وبحركة لا شعورية انسحبت لمى بعيدا عني ، وادرت انا مفتاح آلة السيارة ، وطفرت بنا السيارة الى الامام . ورأينا رجلا ، وقع عليه نور السيارة ، قادما من بعيد ، وحوله كلاب تنبح . فصاحت لمى : « ادر السيارة ، ادر السيارة يا عصام ! » ولما كان امامي نشز من التراب ، اضطررت الى الرجوع الى الخلف بغية الاستدارة ، واذا بالعجلتين الخلفيتين تسقطان بعنف في منخفض ، وتدوران بشدة عبثا ، والسيارة كأنها مغلولة الى الساقية اللعينة — لقد وقعنا في فخ . ورحت ادوس مدوس البنزين الى نهاية مداه ، فتجأر السيارة ، وتدور العجلتان الخلفيتان في الساقية ، سدى . « مصيبة ، مصيبة ، مصيبة » ، جعلت لمى تكرر . « ماذا يريد هذا الرجل ؟ انا اموت خوفا من الكلاب ... » والكلاب تقترب مع خطى الرجل الوئيدة ، ونباحها الحلقي الحقود يملأ الليل . واخيرا وصل الرجل . وعلى حين غرة اشعل مصباحا كهربائيا ومض كعين بذيئة بين عيون كلابه .

ولماذا لا نتوقع من الغريب في ارض مهجورة في الظلام الا الاذى ؟ كان بامكانه ان يتصرف معنا تصرف الغول ، ونحن في الفخ ، وكلابه في شبه الذئاب . غير انه قال برقة وعطف : « مساء الخير . عصيتْ ؟ » قلت : « مساء الخير . نعم عصيت » . لم يومض المصباح في وجهينا ، بل نكس عينه الى الاسفل حين ادرك ان في السيارة امرأة ، وقال : «بسيطة » . واتجه نحو مؤخر السيارة ليفحص الوضع ، ثم عاد ، وقال : « لا فائدة من

محاولة الحركة . انا من عمال سكك الحديد. انتظر ريثما اذهب وآتي بمسحاة » . وانصرف مسرعا ولكن دون ان تسرع وراءه الكلاب التي كفت عندئذ عن صب زئيرها . فقالت لمى: « واذا عاد بشيء غير المسحاة ؟» فقلت: «أتريدين ان نترك السيارة ونهرب ؟ الطريق العام قريب . مشي خمس دقائق ». فقالت: « ولكني اموت خوفا من الكلاب . لننتظر ، وليكن ما يكون » . وجاء الرجل بمسحاة ، لا بخنجر ، وخرجت من السيارة ، ولكنه اصر على حفر التراب امام العجلتين بنفسه — الى ان اوجد امامها منحدرا من ضفة الساقية ، وعدت الى السيارة ، وشغّلتها ، فانطلقت بنا من الفخ . فتوقفت قليلا ، لاودع هذا المنقذ المجهول ، وتركت في كف يده بعض النقود حاول ردها. ثم قال كلمته الاخيرة: «ان كنتما تريدان متعة، ففي الناحية الاخرى من الطريق بستان مفتوح... في امان الله».

ودست على البنزين كالمجنون . متعة ؟ اية متعة ؟ وقالت لمى : « مت من الخوف ، والله ! امسك بيدي . اترى كيف ترتجف ؟ وما ابردها ؟ متعة ! لعنك الله يا عصام » . وارتمت على كتفي ، والسيارة تسرع بنا عودة الى المدينة .

لقد برد هواء البحر . اكاد ارتجف . وحلقي جاف كالتبن . لعل البحر قد جعل يضطرب . جلست في احد المقاعد على ظهر الباخرة التي جعلت الآن تترنح ترنحا بطيئا خفيفا . حلقي جاف كالتبن ، كالرماد . واردت الاسترخاء في مقعدي ، والنوم ، رغم ذكرى الكلاب النابحة حول ذلك الطيف الطارق في الظلام . ما اشد اطمئنان البحر . في ترنحه هذا هدهدة لمن يريد النوم ويقوى عليه . للمى والف لمى في الف باخرة عرض البحر . وبان في مقدم السفينة طيف آخر . طيف يتقدم في اتجاهي . رجل آخر لعله لم يقو على النوم رغم لوليّة البحر . وجاء الشخص وادار لي ظهره ، واتكأ على الدرابزين امامي . وفجأة انتبهت الى شعره الطويل . انها امرأة في بنطلون . وجاءني عبق من عطرها الدافىء خالط رائحة البحر الرطبة المالحة . وكانت تدخن . ولكنني استرخيت في مقعدي واغمضت عيني . وبعد قليل احسست بالمرأة تجلس في المقعد الذي بقربي . فاستويت في مقعدي وحييتها .

« نحن محظوظون » ، قالت بالانكليزية . « فالبحر بين بيروت والاسكندرية معروف بالاضطراب عادة . اترى ما اهدأه ؟ »

قلت : « نعم ، نحن محظوظون » .

« احب البحر . أتحب البحر ؟ »

« نعم . احب البحر » .

« ولكن ما هذه الا سفرتي الثانية بحراً ».

« الى الاسكندرية ؟ »

« الى جنوى . وانت ؟ »

« الى مرسيليا ، ثم باريس ، فلندن » .

« انت محظوظ ! »

فقلت : « اعذريني ان سألتك : الم تستطيعي النوم ؟ »

فضحكت : « انني اعشق صوت الموج » .

كانت هذه المرأة اميليا فرنيزي . لقد بقينا نتحدث على هذا النحو ساعة او اكثر . يستطيع الغرباء الحديث ساعات دون ان يعرف الواحد عن الآخر بعد ذلك الا بضع اكاذيب . وهذا كل ما عرفته عني اميليا ، وكل ما عرفته عنها . ولكنني بعد ذلك لم اشعر باليبس في حلقي . لم اشعر الا بالبرد وبحاجة عنيفة الى النوم. اما لمى، فلم انسها ثانية واحدة . لقد نزلت الى قمرتي ، وكلي خشية ان اسمع من وراء الجدار حركاتها ، انفاسها . ولكنني لم اسمع شيئا قط .

---

التقيت بوديع عساف صباح اليوم التالي . لا اذكره الا وهو يتكلم . كان يتكلم الى فتاة ، عرفت فيما بعد انها فرنسية ، اسمها جاكلين دوران ، والى رجل بدين عرفت انه اسباني ، يدعى فرناندو غوميز . كان وديع يتكلم بحرارة ، ويضحك بحرارة ، واذا سكت ، بدا كل كلام آخر اشبه بالنقيق . كان طويلا ، تنحني كتفاه النحاءة المتحمس لما هو امامه ، وشعره الاسود الكث مصفف بعناية المتأنق المهتم بمظهره . حدست في الحال بانه فلسطيني ، وتأكد حدسي عندما سمعت لهجته . لقد ذكرني بالكثير من الطلاب الفلسطينيين الذين عرفتهم في انكلترا. فقد دهشت دائما لشيء واحد فيهم: حبهم للالفاظ، حتى ولو تكلموا بالانكليزية .

بعد ليلتي المتعبة ، لم اكن متحمسا للقاء احد . كنت في الواقع انظر حولي ، متوقعا، رغما عن نفسي ، ان ارى لمى تسير على ظهر الباخرة ، او كغيرها من المسافرات ، تستلقي في مايوه السباحة على ظهرها في احد المقاعد . غير ان صوت وديع عساف اوقفني . وترامى اليّ بعض كلامه. احسبه كان ينكت . لست ادري. كان الآخرون يضحكون . وقلت لنفسي : هذا رجل سعيد !

وبعد ذلك كان تعارفنا سهلا . واصبحنا متلازمين ، اصغي الى حديثه وهو ينهمر ، ينهمر دائما كالمطر – كالمطر في زوبعة لا تنتهي :

« ما عرفته قبل يومين وما تعرفه اليوم ليس واحداً. الحياة تسيل ، تجري ، تسابق البشر . وهي كل يوم تغيّرك. تأكل منك ، تقضم من حواشيك ، توسع رقعة الخدر في

قلبك . وكل يوم تضيف اليك ، وتضخمك ، وتـــدق في قلبك مسامير المتعة والالم . ولكنك متغير ابدا . طفولتك ترافقك ، ولكنها مـا عادت جزءا منك . انها هناك — بعيدة عنك ، مع ذلك الموج في اقصى الافق ، في الجزيرة التي تراها في بحر احلامك . شاب مثلك يفعم صدره بخواطر الحب ، ولا ريب . فتاة عسلية العينين تركتها في محطة قطار ، او في سيارة تحمل اكياسا وحقائب . سمراء صوتها كاغاني الليل تسمع من بعيد : لا بأس ، لا بأس . بين الخامسة عشرة والثلاثين ، قد تعرف عشر نساء ، وقـد تعرف خمسين . لبعضهن نهود صغيرة كالتين الفج ، ولبعضهن افخاذ كالرخام . بعضهن خلّفن غمامة من الرؤية ، وبعضهن ما زلن يعذبن العين بوجود حادّ ملحّ ملموس . فانا من عشيرة الرومانسيين في قضايا الحب والجنس . واذا رافقتني في نابولي ، افهمتك ما اعني . انا الآن في اجازة — في اجازة طويلة عريضة ، اجازة من كل ما كان يستعبدني ويستحوذ عليّ حياتي المتآكلة . في نابولي — أتحمل نقودا كافية ؟ في نابولي ، ستعرف معنى الجسد . انه معنى مخجل . لماذا ؟ لانه حيواني . الجسد هو الحقيقة الوحيدة التي لا يستطيع احـــد دحضها ، وهو صلتك وصلتي بالوحوش ، بالدواب . ولم الكبرياء والاستعلاء والنفاق ؟ في نابولي ، سنأخذ اربع نساء ، خمس نساء ، ست نساء — بقدر ما تتسع له غرفة النوم ، ونرى العجائب . الحقيقة الواحدة . السأم الاخير . لان الحقيقة ، في الواقع ، مملة . انا دائمـــا افضل الكذابين . الكذابون ارستقراطيون . الكذابون هم ، على طريقتهم الخاصة ، المتمردون . والتمرد دائما امر ارستقراطي . الحقيقة على كندرتك ! ها !

« هذا الصباح قلتها لجاكلين ، هذه الفرنسية التي قصت شعرها ألاغرسون . قالت : أتريد الصدق ؟ قلت : الصدق ؟ ابدا . قالت : كفى مزاحا . فقلت لها : لا اريد الصدق ابدا . اريدك ان تكذبي عليّ ؛ اكذبي عليّ باستمرار . في هذه الباخرة الصدق شحاذ ، ناسك ، كافر ، طاغية ، ابن كلب ، لانريده . وليكن كلامك مثل قصة شعرك . تشبهين بشعرك الولد . ولكن على صدرك ما يكذّب ذلك . فضحكت وقـالت بانكليزيتها المحدودة : شَتْ أَبْ !

« في الواقع ، كل من يدعي انه يقول لـك الحقيقة ، واحد من اثنين : اما انه واهم لا يعرف ، او انه كاذب على كل حال . وما هي الحقيقة ؟ على كندرتك ! قلنا الصدق حتى بحت حناجرنا ، وأضحينا لاجئين في خيام . توهمنا الصدق في امم العالم ، واذا نحن ضحية سذاجتنا . وقد عرفنا ذلك كامة ، وعرفناه كافراد . ولذلك فانني ، كفرد ، مـا عدت اكترث لما يقوله احـد . لايهمني الا احساسي وحدسي . عاش الكذابون المراؤون المخادعون ! على الاقل انا في منجى مما يدعون لاني ختمت هذا الفن . وكما قلت لك ، انا في اجازة ارجو ان تطول سنة او سنتين . واذا استطعت مددتها مدى العمر . ولم لا ؟ انا

فوق الاربعين – لا يغرنك شعري الاسود – غير متزوج ، اخوتي في غنى عني ، ورغم التشريد والضياع ، كسبت من المال في الكويت ، وما ازال اكسب ، ما فيه الكفاية . الحمدلله . هذه سفرتي الثالثة الى اوربا ، وسأمتص منها كل قطرة . في الليل تنتابني ذكريات اليمة . اليمة جدا . وتنتابني رغبات . اليمة ايضا . كنت فيما مضى اجد متنفسا في تدوين الافكار . في كتابة الشعر . اي والله ، نظمت عشرات القصائد ! الفلسطينيون كلهم شعراء. بالفطرة . قد لا يكتبون شعراً ، ولكنهم شعراء ، لانهم عرفوا شيئين اثنين هامين : جمال الطبيعة ، والمأساة . ومن يجمع بين هذين ، لا بد ان يكون شاعرا . اتعرف القدس ؟ لعلك كنت صغيرا عندما التهم الوحش اليهودي اجمل نصف في اجمل مدن الدنيا. القدس اجمل مدينة في الدنيا على الاطلاق . قيل انها بنيت على سبع تلال . لست ادري ان كانت تلالها سبعاً، ولكنني ارتقيت كل ما فيها من تلال ، وهبطت كل ما فيها من منحدرات ، بين بيوت من حجر ابيض وحجر وردي وحجر احمر ، بيوت كالقلاع ، تعلو وتنخفض مع الطرق الصاعدة النازلة كأنها جواهر منثورة على ثوب الله. والجواهر تذكرني بزهور وديانها ، فاذكر الربيع . واذكر التماع زرقة السماء بعد امطار الربيع . والربيع في القدس كان هو الربيع ، لانك تراه يحل في البلد، كأنه مشهد غيّره المخرج على خشبة المسرح . فالجبل البلقع في الشتاء قد اخضوضر فجأة امام عينيك، وحتى بيتك الصغير المتهدم عند منعطف الطريق ، حيث الحجارة المهملة منذ آل عثمان ، وحيث الشجرة اليابسة، يحس الربيع، لان زهورا كعيون الاطفال قد نبتت بين الحجارة نفسها، حول الجذع العاقر المسن نفسه . ولذا فان الليالي قد تأتيني بذكريات من القدس فاحزن ، واغضب ، وابكي. كنت مرة في فندق في الشام عندما فوجئت بمثل هذه الذكريات، فبكيت ، واجهشت بالبكاء . فسمعني جار لي اعرفه ، فجاء يطرق الباب ويسأل ما الخبر ... فقلت : ابكي على ابي ، وامي ، واخوتي ، وما عدت اعرف الخجل .

« اي نعم . ما عدت اعرف الخجل اذا فاجأتني نوبة البكاء . والا لحولتها شعرا . ولكن بربك من يستطيع ان يصوغ كلاما خبرة ثلاثين سنة في مدينة هي اجمل مدن الله ؟ محاولاتنا الابداعية ليست الا مسكنات مؤقتة . هي نوع من البكاء . ولكن لا شيء في الحياة يعوض عن الدموع السخينة الكبيرة . والزمن ، على كل حال ، شيء فظيع . في سيله الظالم لا يترك لشيء جدة او نضارة ، ولا يترك لك في النهاية ما يستحق القول . لقد داس الزمن على كل ما اراه بخفّ كبير ثقيل ، وطمس البريق والفتنة . ولو كنت رساما لرسمت ذلك – أتدري كيف ؟ بلطخة سوداء عريضة ، قد ابقّعها في مكانين او ثلاثة بشيء من الاحمر . الزمن هو العدو. عشْ ، عشْ ، ابقَ في قيد الوجود ما استطعت ، ولن يكون لك غير ذلك . لطخة سوداء تملأ قماشة العمر ، مع نقطة هنا ونقطة هناك –

طفائف تعرض لك دون ارادة منك ، ولكن دون ان تحظى بتلك التجربة الضخمة العنيدة التي هي نتيجة الخيار والارادة .

« أتدري ؟ كان الانسان البدائي الذي يعيش على القنص في البراري اكثر حظا منا . كل يوم لديه اختيار اكيد ، مجابهة للخطر ، وهو دائما على شفا الكارثة . وما بقاؤه الا نصر يتجدد كل يوم . اما بقاؤنا ؟ ها ! اننا نبقى رغم انوفنا . وانا اعرف ذلك خير معرفة . انه بقاء سالب منفعل علينا ان نرضى به . ولا هو نتيجة لفعل منا . الحياة ، رغم كل هذه الفوضى الظاهرة ، نظمت المجتمع بشكل شامل هائل ، بحيث اصبحنا قادرين على العيش عيشة آلية ، ما علينا الا ان نحرك اذرعنا واقدامنا ، مسيرين بالطبع ، فنأكل — اي شيء — ونشرب ونتزوج وننجب الاولاد ونسعى والرأس قبل القدم الى الحفرة المحتومة . هذا هو التقدم . اشبه بتقدم الحالة المرضية . اما انا فأوثر الحياة البدائية . لا اصدق احدا ، ولا ادعي الصدق لاحد . ابكي بعض الليالي ، ولكنني اضحك كثيرا . واحب النساء . من كل نوع . من كل لون . وارفض البقاء السالب المنفعل . في نابولي سنأخذ النساء بالجملة . ولن اكتب كلمة واحدة . لان الكلمات تزيل حدة انطلاقي . هل قلت ان الفلسطينيين كلهم شعراء ؟ انهم في الواقع تجار . لقد اقفلوا قلوبهم على الشعر ، وانصرفوا الى التجارة ، في كل مكان . وانا ، كما ترى ، واحد منهم . اسعى في سبيل القرش الف ميل . ولكنني ادوسه بقدمي في النهاية . المال على كندرتك !

« انا ، ان كانت لديّ عاطفة حقيقية ، فهي عاطفة دينية . صوفية ان شئت . عواطفي تتحرك بموسيقى الكنيسة . فالالحان التي تتصاعد اليمة جريحة من حناجر المرتلين ، والحان الارغن الهادر في السقوف الشاهقة ، وهذه الاشارات الضارعة الخاشعة الى الله ورب الارباب وملكوت السماء وحمل الله الحامل خطايا العالم — هذه كلها تغمرني بما هو اشبه بالهستيريا من الانفعال : فانا اريد ان اتمزق عندها — اتمزق فرحا وطربا ، واسى وحزنا . لان الجمال حزين — اجمل ما في الحياة حزين ، والملائكة التي تحمل كؤوسا تملأها من الدم القاطر من يدي المسيح المصلوب جميلة — جمال مقدس ، ضارع ، خاشع ، ناضج الشفتين ، واسع الحدقتين ، وكله مضمخ بالدموع . في هذا الجمال المنغم الموزع بين اجواق كاجواق المسرح الاغريقي ، ارى الحياة ، ارى حياتي ، ارى ما انجزت وما اخفقت فيه . واخيرا ، ما انا وانت الا هباء بين هذه الانغام . هباء في سديم الكون ، هباء لا يعني شيئا ويعني كل شيء .

« كنت في صغري انتشي بالصلاة ، ولكنني لما كبرت فصلت بين الصلاة وبين التقوى ، وتعقد الامر اذ اصبحت عواطف الصلاة والضراعة عواطف جمال وحب وموت . هذا البحر الرائق المقمر غير حقيقي . وغير حقيقية هذه الزرقة وهذا الانسياب وهذا الليل

الحاني على الدنيا كالعاشق السهران . انما الشيء الحقيقي هو ذكراي له . الذكرى تتحول الى ما يشبه الموسيقي . تبتعد الوقـــائع عنك في دهاليز الزمن ، وتخلف امواج النغم في ذهنك . الكل زائل سوى هذه الامواج . لا مجازا ، بل فيزيائيا ايضا. وهذه الامواج هي انغام الفرح والاسى المرتبطة بالله والملائكة والقديسين ، وتندمج فيها انغام الحب والمتعات العنيفة الخفية . فيها ذكرى مياه ، اشـد وقعاً — واشـد ايقاعا — في حجرات النفس الفسيحة ، ميـاه حسبتها بحرا ، ولم تكن اكثر من مجرد بركـة تتجمع فيها مياه امطار الشتاء خارج سور القدس — بركـة السلطان . اقف على صخرة فيها انحسر الماء عنها ، وانظر الى المويجات التي تخلقها الريح حولهـا في المياه الخضراء ، فارى الصخرة تمخر فيها كما تمخر سفينتنا هذه المياه المتوسطية الزرقاء . كنت في الرابعـة عشرة، وكلي تحرق الى البعيد ، الى المستحيل ، اهرب من بيتنا وآدميه الكثار الى بركة السلطـان لاقف على الصخرة المحلقة عبر محيطات الخيال. لقد كان مثلي ولا شك ذلك الذي اخترع بساط الريح. لم يكن قد غـادر حيّه المرصوص غرفا وابوابا وفقراء ونفاياتٍ وروائحَ في بغـداد او القاهرة . فـابتدع بساط الريح . وابتدع الرخّ . وابتدع طاقية الخفاء . ورأى الحمـائم تقدم من السماوات القصية وتحط على برك من رخام ، واذا هي تنزع عنها الريش لتكشف عن صبايا حسان . كلها موسيقي . وباليه . ومستحيل . وتوق . وعبقرية الانسان الذي تحـاول المدينة ان تستعبده . اريد ان احدث جاكلين عن هذا كله ، ولكنها لا تتقن الانكليزية ولا تعرف العربية وانا لا اتقن الفرنسية . ولا اظنها ستفهم حتى لو استطعت ان احدثها بالتفاصيل . تضحك لاقل كلمة . السفرة بالنسبة اليها نكتة بارعة مستمرة . تأكل كما لم تأكل لعشر سنين . ولا تخشى السمنة . ولن تسمن . في داخـــلها وحش نهم يلتهم كل شيء ، فتبقى هي على حالها من الجوع . والا فاين المرأة التي تستطيع في الثلاثين ان تحافظ على مثل هذين النهدين القائمين المتحديين ؟ وهاتين الساقين الصلبتين من الردف حتى القدم ؟ موسيقى. كلها موسيقى . والموسيقى مياه ، والجمال مياه انسابت فجمدت على اشكال هي مشتهى العين . والكل انغام .

« اظن اني اعرف السر . ايام الصبي كنت اقرأ كتبا كثيرة معظمها روايات مترجمة، لا تمت لحياتنا بصلة . فكان لابد لي من الانطلاق كابطال تلـك الروايات في الغابات، التي لم توجد عندنا بالطبع ، تحت الامطار الهاطلة ، في العواصف ، في الشموس المشرقة بعـــد الزخات الغزيرة على الاشجار . وقـــد امتطيت حصاني الذي عرفت فيما بعد انه شبيه روزيناتي ، حصان دون كيخوتي ، لانني مثله رفعت سيوفا صارمة في وجه شياطين من الخيال ، والتقيت بحسان اقع في غرامهن من اول نظرة. كنت في لقاء مستمر مـع حسناء محجبة ، تلاقيني في مقبرة خارج السور . ولست ادري والله حتى اليوم هـــل كنت فعلا

التقي هذه الحسناء التي ارى وجهها دائما وقد رفعت عنه الحجاب في غسق اشهب بين القبور ، ام ان الامر كله من مزاح الخيال . كنت اقص حكايتي معها لصديقين لي يأتيان من القرية مرة في الاسبوع ، كحكاية متسلسلة . كان ابوها عطارا في سوق العطارين في المدينة القديمة . اذهب اليه بعد ان امر بالصفارين الذين يملأون السوق المسقوف طرقا وطنينا ، وأراه بلحيته القصيرة وقنبازه العتيق مستقرا كمومياء بين اكياس المساحيق الشذية . ذلك ابي ، تقول هي — وقد نسيت اسمها ( ألعلها اذاً من خلق الخيال ، لا غير ؟ ) . وتردف : ولو عرف باننا نلتقي بين هذه القبور ، لقتلنا كلينا واختصر مراسيم الدفن هنا ! كانت طالبة مدرسة ، سوداء الشعر ، سوداء العينين ، ووجهها المقدسي كوردة بعد المطر . او هكذا وصفتها لصديقيّ . فوجوه بنات القدس كلهن كالورود بعد رشات المطر . لست اذكر الآن كيف انتهى الامر بيننا . لا لشيء الا لانني منذ ذلك العهد احببت عشرات الفتيات ، ولكل منهن قصة اذكر على الاغلب بدايتها ، ولكن النهايات تختلط عليّ . ولكنني لا استطيع نسيان المقبرة . الحب على مرأى من الموت ! قوة الحياة تتحدى قوة الفناء : انها فكرة خطرت لي بعد ان كبرت ، ولا ريب . اظن انها امتنعت عن المجيء فجأة دون سابق انذار ، وانتهى الحلم . وبقيت ارى اباها وانا في طريقي الى المدرسة كل يوم ، واقول : ها ! هذا الرجل قبلت ابنته الجميلة مائة قبلة ، وهو لا يدري . عندما يكبر الانسان يزداد شره . تزول براءة مثل هذا الخاطر ( ولم لا يقبل فتى يعشق الدنيا كلها ابنة شيخ يحتضر بين مواد عطارته؟) ويحل محلها: هذا الرجل قبلت زوجته مائة قبلة، وهو لا يدري .

« ولكثرة ما رويت لصديقيّ القرويين من تلفيقات الخيال الجامح ، انتقل صديقاي ، كلاهما ، مع اهلهما الى القدس مثلي . ولكن الحياة صنع يديك انت ، لا صنع غيرك . فاذا لم يتمتعا بما تمتعت به في مراهقتي التواقة ، هل كان ذلك ذنبي ؟

« ولكن لعلها لم يقلا عني متعة ؟ ما اقلّ ما كان يكفينا للمتعة ! تلك المشاوير في شارع يافا ، او في متاهات الصخر والزيتون المحيطة بالمدينة. هل جلست مرة ، يا عصام، تحت زيتونة هرمة ، على الارض الحمراء ، والشوك يكاد يحيط بك ، وكذلك الزهرات القلائل من الشقائق ، او ذلك الحنّون الاصفر الذي لم نعرف له اسما قط ، لان الفلاحين لم يسموه الا بالحنّون ؟ لك الله يا زيتونات الطالبية ، والقطمون ، والمصلبة ، والوادي المسترسل الى المالحة ... تحتك تركنا جزءا من حياتنا ، هبة ، وعربونا للعودة . تخرج الى العالم ، وترى الاشجار البواسق ، والبساتين المنمقة والغابات الملتفة ، ولكنها كلها لا تساوي غصنا معوجا واحدا من تلك الاشجار الغبراء المتباعدة ، في تلك الارض الصخرية الحمراء التي تلقت قدميك كقبلات العاشق ، وبانت كأنها تنتشر تحت جنبك اذ تضطجع

عليها كارائك الجنة . لعنة واحدة هي اوجع اللعنات : لعنـــة الغربة عن ارضك . سل الفلسطينيين . سل الفلاح الذي يذكر تجرّح قدميه على تلك الأرض كأنه يذكر لذة حياته الوحيدة ، كأنه يقول ان حياته ، بعد ان ابعد عن ارضه ، ما عادت حياة . هذا البحر الازرق يتـألق ، غير مكترث ، غير حـــافل ، انا اعرف ذلك ، لانه يظن انه يجمع حضارات الدنيا على شطآنه . ولكنه يحمل ايضا لطعات من شاطئنا تجعله على هذا الألق ، هذا الحسن . انا احب البحر المتوسط ، واركب السفينـــة فيه ، لانه بحر فلسطين ، بحر يافا وحيفا ، وبحر هضاب القدس الغربية وقراها . فانت اذا صعدت هضـــاب القدس ونظرت غربا ، لن تعرف اين تنتهي الارض وأين يبدأ البحر واين يلتقي الاثنان بالسماء . فهي ثلاثتها متداخلة متمازجة — ومتماثلة . هذه الزرقة هي الشيء الوحيد الذي يلطف من غربتي . كأنني بها اتصل بارضي من جديد ، كأنني بها اعود الى بركة السلطان فاراها قد اتسعت وامتدت وفاضت انهرا وشلالات دافقة .

« في الصميم نحن وحيدون . حياتنـــا اشبه بالعلب الصينيـــة : علبة داخل علبة — وتتضائل العلب حجما ، الى ان نبلغ العلبة الصغرى في القلب منها جميعا . واذا في داخلها — لا خاتم ثمين من خواتم ابنة السلطان ، بل سر اثمن واعجب : الوحـــدة . وهل كانت بي حاجة الى ان اقتلـع من جذوري ويقذف بي بين الحوافر والبراثن ، بين لواهب الصحراء وزعيق المدن البترولية ، لكي اعرف ذلك ؟ القماشة عريضة ، والسواد فيها كثير ، والبقع اللألاءة قليلة متباعدة . الطالبة الهاربة من ابيها الى القبور اتقابل حبيبها لحظتين رهيبتين ضاعت في سواد القماشة ، واعود الى آلام كآلام الصليب ، في مأساة تتجدد ، فيقولون عني : انحطاطي ، ماكر ، يناقض نفسه ، يعبد القرش ، مـا عادت ارضه تعني له شيئاً . كأنهم يريدونني ان احمل حفنة من ترابهـا في كيس من ورق في جيبي دليلا على المي ، وانا احمل صخورها البركانية الزرقاء كلها في دمي ، في العلبة الصغرى التي في قلب العالب كلها ، مع وحدتي ووحشتي . كلنا وحيدون . كلنا نضم هذه الجوهرة بين الجوانح بعيدا عن العيون . نضمها مع شيء او شيئين ، ربما . والعيون التي نحبهـا ، ونتغزل بها ، ونموت من اجلها ، نخشاها : فهي العيون التي تنفذ كالاشعة السينية الى خفـايانا . نضم بين الجوانح الحب والوحدة ولا نريد ان يعرف محبونا بالذي نضم ، لا خوفا على انفسنـــا — طبعا لا . بل خوفا عليهم . خوفا عليهم هم . وهل نعود الى الموسيقى ، وهذا البحر ؟ اي سر يخفيان ؟ هل من يفض مكنون النغم او نزق الموج ؟

« اليوم قارنت جاكلين نفسها بالسيدة العراقيـــة التي اضحت حديث الجميع . لفظت اسمها خطأ : لونا ، بدلا من لمى او ، كما يلفظه الاجانب ، لوما . وضحك فرناندو : لونا ، لونا ، القمر ، عرفت الآن سر الجنون ! ولم يهمني ان اصحح الخطأ . بل ، لم يكن ثمة خطأ .

ألا يحق لنا ان نخلط بين جمال الشفاه ، والقمر ، والجنون ؟ ذلك ايضا من فعل الموج — هذا الموج المتوسطي الرهيب الفتنة . أتدري ان شعراء العرب القدامى كانوا يعشقون اسماء الاماكن ويكررونها في شعرهم كأنها اسماء الاحبة ؟

قفا نبكِ من ذكرى حبيب ومنزلِ  بسقط اللوى بين الدخول فحومل

او هذه الا بيات لذلك المسكين الذي لا نعرف عنه الا ان المنذر قتله لانه التقى به في يوم بؤسه : عبيد بن الابرص . اتذكره ؟

اقفر من اهله مَلحوبُ  فالقُطبيّاتُ فالذَنوبُ
فراكسٌ فثُعَيْلِباتٌ  فذاتُ فِرقَينِ فالقَليبُ
فعَرْدَةٌ فقفا حِبرٍّ »

ولما لم يذكر اسم مكان يصلح قافية للشطر الثاني ، قال : ... ليس بها منهمُ عريبُ .

«وكيف يذكر شاعر هذه الاسماء كلها اذا لم تكن كلها ، صخورها ورمالها ، جزءا من دمه ولحمه وعظمه ؟ ولكنه يعتمد ايضا على ما تثيره من عشق مماثل في قلب السامع ايضا . نحن يكفينا ان يقال بغداد ، لترقص فينا الاضلع نفسها — رغم ما حدث فيها من قتل وسحل . واذا قلت ، لمى وبغداد ، انسرحت فينا قصائد من الاخيلة . ها يا عصام ؟ بربك هل انت بريء من كل هذا ؟ ام انك مهندس فحسب ، لا ترن في سمعك الامكنة اذا ما ذكرت ، وذكرت معها اسماء كلمي وغير لمى ؟

« كما قلت ، قارنت جاكلين نفسها بالسيدة لمى . قالت : ما الذي تراه في لونا ولا تراه فيّ ؟ فقلت : الحكاية طويلة يا جاكلين . هل تعرين شيئا عن شعراء العرب ؟ فقالت : وما دخل الشعراء بلونا ؟ وضحك فرناندو مرة اخرى . وقال : يجب ان تكوني اسبانية لكي تفهمي . اتعرفين لوركا ؟ فقالت : ومن هو لوركا ؟ فسقط فكه شبرين ، ثم جعل يدور ويدور حول نفسه كأن فيه مسّاً ، ويقول: اخبرها ، اخبرها ، اخبرها . . . اتفقنا على قضاء ليلتين معا في باريس ، لكي اخبرها . غير ان الخبيث اخذني جانبا فيما بعد وقال : لماذا تورط نفسك منذ الآن ؟ ما تراه شهيا في سفينة على البحر ، قد لا تراه شهيا في غرفة في مونبارناس. . . رحمك الله يا عبيد . فراكسٌ فثعيلباتٌ فذاتُ فرقينِ فالقليبُ — مونبرناس، بول‌ميش، بوليفار راسباي... وكلها لم تقفر بعد من عريب...».

---

لمى !
لمى ! لمى !
لقد ضجّت السفينة بلمى .

او هكذا ظننت .

في الواقع لم تكن لمى من الذين يملأون الدنيا ضحكا وحبورا . لم تكن تتوسط الحلقات ، وترسل النكات وتناغي الذئاب من الرجال. لا لان زوجها يلازمها ، او يراقبها، فيوجد حبه حولها دائرة سحرية تمنع احدا من اقتحامها . بل لانها من عادتها ان تنتحي جانبا ، وان تدير خدها الى الناظرين ، وتستعلي بعنقها الرفيع السامق فوق رؤوسهم . نزعة ارستقراطية لم اعلم من اين جاءت بها . فقد سمعت ببغداد من الذين كانوا يعرفونها قبل ذهابها الى اكسفورد للدراسة انها كانت دائما كثيرة الكبرياء ، بحيث يخشى الاحتكاك بها الا من كان يعرفها معرفة صميمة. غير ان اكسفورد اضافت الى كبرها كبرا، والى انفتها انفة . ولكنها في الوقت نفسه كبرياء تذوب في الخجل ، وتتلاشى عندما يستثار همها . لقد كانت كمن يجتذب عابري السبيل ، ثم يوقفهم عطشى على بابه ، ولا يتذمرون .العطش. غريب ! العطش يذكرني دائما بلمى . حتى اسمها يحرك اغوار العطش فيّ . وقد كان حبنا عطشا وبقي في جفاف العطش . تنتفخ من شرب الماء ، ولا تروى : عطش الهي ، يقحمك رغم تبذلك كله في زمرة المتصوفين .

وقد ضجّت السفينة بلمى ، لانها اثارت الاهتمام بجمالها ، ولم تقترب من احد بما يكفي لازالة الاهتمام . وقد سألني عنها كل من تكلمت معه . أ من العراق ؟ أ من بغداد ؟وبغداد كلمة سحرية للعرب وغير العرب . وديع عساف راح في الحال يتغنى بعيون المها ، وعيون الظباء ، وعيون الاعراب : الحدقات الواسعات ، والحور المجنن الشعراء والصعاليك والخلفاء . واعترف لي جهرا بانه يتصيدها في الصباح لانه يتفاءل بالعيون السود والرقاب الممشوقة . وأميليا فرنيزي سألتني عنها . وفعلت بغداد ولمى في خيالها معا : الجواري والحريم وبنت السلطان ، وهل عشق السندباد يوماً ؟ آه ، كان السندباد لا يعرف الحب ، لانه بحار . والا فكيف يترك لمى ويستسلم لاحضان البحر ؟ وجاكلين سألت عنها : اتحب زوجها بهذا المقدار ؟ الجميلة لا تحب، زوجها او غير زوجها ! جاكلين ، لم القسوة هذه ؟ مسيو عصام ، الجميلة هي النرجس . هي التي ستموت يوما عطشا لانها لا تستطيع النهل من جمالها . اما فرناندو غومذ، الاسباني ، الذي كان رفيق وديع في القمرة، فكان يضحك وترتفع بطنه وتنخفض لضحكته. العرب والاسبان من دم واحد : هكذا يقول. والعرب والاسبان، يقتلون من اجل المرأة ، ويقتلون المرأة ، عشقا وغيرة وشرفا . والعرب والاسبان وحدهم ، وحدهم دون غيرهم ، يعرفون عبادة الجمال في المرأة : في استطاعتهم وحدهم ان يعيشوا فيها ويموتوا فيها ويتركوا كل ما هو ليس منها لغيرهم . فضيلة ورذيلة معا، يا سنيور عصام. اما السنيورينا لمى فلن يكون لجمالها من نهاية الا المأساة.

ولم يعلم احد بالذي بيني وبين لمى .